كتاب الشهر

أسعد قطّان مستعيداً الإرث الرحباني
عاصي ومنصور وفيروز... "نواطير" الزمن الخالد

خمس دراسات يضمها كتاب "عن جبال في الغيم ـ مطلات دراسية على ارث الاخوين رحباني وفيروز". رحلة متأنية تحمل توقيع اسعد قطان، وتشكل اضافة مهمة الى الدراسات التي صدرت عن التركة الفريدة لعاصي ومنصور. يحلل الباحث اللبناني هذا الارث من زوايا محددة، ويتوقف عند مواضيع اشكالية في هذا النتاج الغني والمتنوع

لا يدّعي الباحث والبروفسور اسعد قطان بانه يقدم مؤلفا شاملا عن مشروع الاخوين عاصي ومنصور الرحباني في "عن جبال في الغيم ـ مطلات دراسية على ارث الاخوين رحباني وفيروز" ("الدار العربية للعلوم ـ ناشرون"). لكن الدراسات الخمس التي يتالف منها هذا الكتاب تشتغل على الاحاطة بحثا وتحليلا في اركان اساسية في الصرح الذي بناه الاخوان رحباني، مستعيرا عنوانه من "عن جبال في الغيم" التي انشدتها فيروز عام 1959، ضمن اولى حفلاتها العلنية في "معرض دمشق الدولي".

العنوان يمكن ان يحيل ايضا الى ما قاله الشاعر السوري الراحل نزار قباني في عاصي، بعد عام على رحيله، بانه سيكون "اعلى واهم جبل في اطلس لبنان".

صحيح ان اسعد قطان استاذ اللاهوت في جامعة مونستر في المانيا، الا ان باعه في الثقافة والفن، خصوصا مشروع الاخوين رحباني، يعود الى النصف الاول من التسعينات. على صفحات ملحق "نهار الشباب"، نشر عددا من الدراسات القصيرة التي تغوص في الارث الموسيقي والادبي الخاص بالرحبانيين وفيروز، ولاحقا في مجلات ادبية وعلمية عدة. ها هو اليوم يستعيد بعضها في صيغة معدلة منقحة، يضمها بين دفتي كتاب حفاظا عليها من الاندثار.

تعكف هذه الدراسات الخمس على جوانب عدة من انتاج الاخوين الرحباني الادبي والموسيقي، بما فيه الاعمال المسرحية التي وضعت لفيروز. لكن الباحث اختار ان يفتتح الكتاب بمطالعة في كتاب المستشرقة الالمانية اينيس فاينريش "فيروز والاخوان رحباني: الموسيقى والحداثة والامة في لبنان" ("دار ارغون"/ المانيا ـ 2006). اختيار كتاب فاينريش ينبع من انه "يرسم الاطار التاريخي والثقافي لاعمال الاخوين الفيروزية، ما يجعل مطالعته تتخذ طابع مقدمة لا بد منها".

تزداد اهمية هذا الاختيار حين نعرف ان الكتاب يتحرى السياقات المجتمعية والسياسية المحيطة بالظاهرة الرحبانية، ويوثق هذه الظاهرة ويحللها على خلفية المشهد الثقافي والسياسي والمجتمعي، مع التركيز على حقبة الخمسينات. كما يستعيد ابرز المعالم الموسيقية للبيرتوار الفيروزي، محاولا ابراز عوامل مثل الهجرة وانتقال ابناء الريف الى المدينة، والحرب الاهلية. يضيء على هذه الظاهرة في علاقتها بالتاريخ والظروف السياسية وآليات تشكل الوعي القومي في زمن بزوغه. اما باقي الدراسات، فتركزت على بحث مفهوم الزمن في اعمال الاخوين، وتقديم مفتاح معرفي يتيح الفصل بين انتاجات الاخوين، وتمييز ما لحنه عاصي عما لحنه منصور، عبر التركيز على القصائد الفيروزية.

يشدد المؤلف هنا على ان محاولة التمييز بين الحان عاصي ومنصور انما تأتي لتخدم "هدفا علميا معرفيا" في الدرجة الاولى لا الفصل بين الاخوين.

اما البحث الرابع، فيضيء على اشكالية القائد والحاكم من زاوية علاقتهما بالشعب في اعمال الاخوين المسرحية. يأتي البحث الاخير ليشكل قراءة تحليلية في مسرحية "المحطة" (1973). بالطبع، يستعين المؤلف في كتابه بعدد من الاختصاصيين الذين يعتبرون مراجع في ارث الاخوين رحباني على رأسهم الناقد الراحل نزار مروة الذي يعدّ اهم النقّاد الموسيقيين العرب المعاصرين، وفيكتور سحاب، وفواز طرابلسي، ومحمود زيباوي...

لعل احدى المحطات المتفردة والمهمة في صفحات الكتاب هو فصل "شو بيبقى من الرواية؟ الزمن في اعمال الاخوين رحباني (1951 ـ 1972)". يرصد الباحث هنا علاقة الاغنية الرحبانية بالزمن. يرى قطان ان عنصر الزمن كان هامشيا في اغنيات الرحابنة في النصف الاول من الخمسينات. في تلك الفترة تركز عملهما على الاغاني الراقصة واعادة انتاج الفولكلور والقصائد. يبدأ هذا الفصل باغنية شبه منسية في ريبرتوار الرحابنة. انها "حلوة الموطن" التي سجلها الاخوان وفيروز مع كارم محمود عام 1955 خلال زيارتهم القاهرة بعيد زواج عاصي وفيروز.

يرى المؤلف ان الزمن يبدو ايجابيا في هذه الاغنية "التي تستبق، من حيث الايقاعات وتقنيات العزف، نمط الاندلسيات الذي سيفرض نفسه بدءا بظهور فيروز عام 1960 في معرض دمشق الدولي، جزءا فريدا من الانتاج الرحباني".

للدلالة على ذلك، يحلل بيتا في الاغنية هو:

"كبُرت هند، فانجلي يا سما بالحنان
كبرت هند فاخجلي يا ربى البيلسان".

يتوقف المؤلف عند هذا البيت، معتبرا ان مرور الوقت يبدو امرا سعيدا في الاغنية، لانه سيسمح لهند ان تكبر وتتألق وتصبح اجمل وابهى. يستشهد ايضا بعدد من قصائد تلك الحقبة حيث تغلب المقاربة الايجابية للزمن مثل "وطني سماؤك"، و"يا مروج بلادي"، حيث "يكاد جمال الوطن يبتلع الزمن ويمحوه، فصورة الجمال ازلية لا تتأثر بمرور الوقت". يرى ان زمن الوطن الذي تنشده هذه القصائد هو زمن الطبيعة في تألقها اي الربيع والصيف:

"فوق الربى تزهو كرومك بالندى
وعلى الوهاد بواسق الافنان
تختال تحت الشمس مزدهر المنى
حلما يموج على رؤى الوديان" (وطني سماؤك).

الا ان هذا الطابع التفاؤلي في مقاربة الزمن سيتغير بدءا من عام 1962 مع تسجيل الثالوث الرحباني عملا تلفزيونيا بعنوان "الاسوارة". هنا، نشعر بان الوجود البشري صار خاضعا لجريان الزمن الذي يؤدي في النهاية الى اندثار الانسان بحسب المؤلف. من حوارات واغنيات ذلك العمل، يتوقف عند "غابت الشمس، وسرّب الختيار، وصار في عالحيط صورة". بحس شعري عال، رصد الاخوان مرور الوقت على الانسان حتى لحظة اختفائه من الوجود. لكن التحوّل الاكبر في النظرة الى الزمن ستفتتحها مسرحية "دواليب الهوا" التي قدمها الاخوان مع الراحلة صباح في اطار "مهرجانات بعلبك" عام 1965. في هذا العمل، ستتجلى نظرة الاخوين الى الزمن بوصفه مسؤولا عن هشاشة الوجود وزوال الانسان، كما يوضح قطان. في النصف الثاني من الستينات واوائل السبعينات، سيتعزز الشعور بمعطوبية الوجود البشري الناتجة عن جريان الزمن في اعمال الرحبانيين. لعل ابلغ قصيدة عن هذا الاحساس يوردها قطان هي "يا بيتا لنا" الذي يرجح المؤلف ان منصور كتبها. مما جاء فيها:

"صاح بي عند الربى
في الممر الاخضر
بلبل ملء الصبا
هاتفا لا تكبري
كلهم قد كبروا
اهلنا والزهر
وانا في هدب من اهوى
سنونو تعبر".

يرى قطان ان مسرحية "المحطة" (1973) تشكل بمعنى ما "ذروة المشروع الفكري الرحباني، لا من حيث كونها سبقت مباشرة اصابة عاصي بنزف في الدماغ، او من حيث محمولها الرمزي فحسب، بل ايضا من حيث تعبيرها الكثيف عن انسداد افق الزمن الانساني ودورانه في حلقة مفرغة". طبعا، هذه المسرحية سيفرد لها قطان لاحقا فصلا كاملا، مقدما قراءة تحليلية معمقة لمختلف طروحاتها وزواياها.



غلاف الكتاب.

من الفصول الاشكالية ايضا هو ذاك المخصص لعملية بحثية تحاول فصل ما لحنه منصور وما لحنه عاصي. مهمة عسيرة فعلا، خصوصا وان الاخوين ظلّا طيلة مسيرتهما اشبه باقنوم بضلعين. هنا، يستند قطان الى عملية تقاطع بين شهادات ودراسات (من بينها دراسات لفيكتور سحاب وشهادات لمقربين من الاخوين على رأسهم زياد الرحباني) الى جانب تحليله الشخصي، ليخلص الى انه في التلحين الموسيقي، كان منصور اكثر ميلا من عاصي الى اجواء الموسيقى الاوروبية الكلاسيكية، فيما كان عاصي ميالا الى طبيعة الموسيقى العربية.

في ما يتعلق بالقصائد الرحبانية، يستشهد قطان بالراحل نزار مروة في حلقة بعنوان "طريق النحل" بثت على اثير "صوت الشعب" عام 1987. في تلك الحلقة، قال مروة انه "في الشعر الرحباني، ارتبط عاصي بالشعر العامي المتصل بجذور فولكلورية او لمعات تشبيهية. كما نستطيع ان نؤكد ان عاصي كتب معظم الحوارات الفكاهية في المسرح والاسكتشات الرحبانية. لعاصي القدرة على كتابة القصيدة الفصحى، الا ان منصور كرّس لها وقتا اكثر واعطاها الكثير من وقته في الاطلاع والمناقشات والتجربة".

يتوقف قطان في هذا الفصل عند حيز تطبيقي، متخذا جملة من الاغنيات والقصائد الرحبانية ليحللها وفق المقاربة المذكورة اعلاه. بعد الابحار في خصائص الجملة اللحنية والشعرية عند الاخوين كلا على حدة، يخصص قطان فصلا لـ "القائد والحاكم والشعب في مسرح الاخوين رحباني (1962 ـ 1972)، مستهلا بانه منذ شيخ المشايخ في مسرحية "جسر القمر" (1962) مرورا بالمختار في "بياع الخواتم" (1964)، وصولا الى داجور ملك سيلينا في "هالة والملك" (1967)، تحضر شخصية القائد في اعمال الاخوين رحباني المسرحية بكثافة، وتسبغ عليها بعدا سياسيا لا ريب فيه.

بعد وضع المسرحيات المختلفة تحت مجهره واشباعها تحليلا، يخلص قطان الى ان لا خط بيانيا تصاعديا في معالجة الاخوين اشكالية العلاقة بين الشعب والقائد في اعمالهما منذ "هالة والملك" الى "ناطورة المفاتيح" (1972)، بل ان هناك ما وصفه بـ"نموذج دائري"، بمعنى ان الاخوين يتناولان الفكرة ذاتها من زوايا مختلفة ووفق سياقات مختلفة. فـ"فيما نجدهما في "جبال الصوان" يبحثان في تأصيل الوعي السياسي لدى افراد الشعب عبر تخطي انظومة القائد القائمة على الحق الوراثي، نراهما يتخليان في "يعيش يعيش" عن طوباوية احلام من هذا النوع، ويستنجدان بنموذج جغرافي يكرّس الانقسام بين الحكام والمحكومين".

لعل الثابت في هذه الاعمال بحسب قطان ان "هناك صراعا بين مبدأ ذكوري يهيمن عليه الطغيان وضغط الذهنيات البائدة، وآخر انثوي نبويّ غالبا ما يعبّر عنه الحضور الفيروزي المبدع في ايحائيته وقدرته على الانتقال من الهدوء الى الغضب، ومن الوداعة الى الثورة. في كل هذا ايضا ايمان رحباني لا يتزعزع بان الانسان هو القيمة الكبرى، وبان مجد القادة والحكام لا قيمة له ما لم تتحول تيجان المُلك الى لعب في ايدي الاطفال".

في المحصلة، رغم غزارة الاعمال التي تصدر كل سنة عن الارث العظيم الذي تركه الرحابنة، يبقى كتاب "عن جبال في الغيم" محاولة جادة ورصينة في دراسة بعض اعمال الاخوين، والخروج بخلاصات طازجة ومهمة واشكالية في مواضع كثيرة.